

للضحك أسرار ...!

للأستاذ صلاح الدين المنجد

أدولف فيليب، فنان بارع، ومصوّر مجيد، أوتي من القدرة على المزج في تصويره، وعلى تبيان المعانيب في شخصه، ما جعله سيد هذا الفن، المتفوق المبرز، فانهطت عليه الصحف السكاريكاتورية في باريس، ليمدها من حين إلى حين بصور فيها إبداع وأصالة.

وصوره ذات طابع خاص بها، وصفة لا تفارقها. فهي تبدو، في النظرة الأولى، سوراً ساحكاً مضحكاً، يفور ظاهرها بالسرور، تثير في نفسك الإعجاب والتقدير. فإذا أتممت النظر ودققت في تلك الصور، بدا لك أن ما فيها يدفع إلى التأمل والتفكير، وأن في أعماقها كآبة تدفع إلى الحزن وعبرة تيمث الألم.

سألت يوماً فنانة باريسية جميلة عن سر ذلك. فأجابها «نعم. إن في كل شيء، مهما كان، قليلاً من الأسى. ويجب أن نزينه بالضحك ليخفى، لئلا يؤذي أحداً، أو يؤلم أحداً...»

وجواب الفنان جدير بالتأمل. فالحزن في الحقيقة، لا يفارق الإنسان. لأن هذه الدنيا لا ترحم. ربما أوتي أحداً سال، ولازمته الأمراض؛ أو أوتي المافية، وسلب المال؛ أو قعد به الحظ المنكود عن الترقى، وفي نفسه آمال؛ أو فال بسطة من العلم فأحمله ذوو الشأن؛ أو حسده الأصدقاء والأقران؛ أو اشتى ولداً يوجب له، على سمة من غنى، وعلو في الجاه، فلم يوجب له الولد، فتبقي في نفسه حسرة على ما أمله، وحزن على ما فاته. لكن ماذا يفيد إذا أظهر حزنه؟ وما نفع التحسر والوجوم؟ إن الحزن والشكوى والبكاء، أشياء تثير الشفقة علينا، وتدل على ضعفنا، وفي الشفقة علينا حطة لنا، ثم هي قد تدفع الناس للاعتماد عنا، لأنها تؤذيهم، وتؤلمهم، أو تذكرم بالآلامهم. فالحزن يبعث الحزن، ويذكر بالشجى. والدفع يستدز الدع، ويجلب الأسى. والناس تكفيهم أحزانهم، وربما نسوا لحظة أو ساعة، فإذا ذكرناهم بها تألموا. والدنيا، وما فيها، أقصر من أن نقضيها بالحزن... ولا بد من التجلد

فإذا حزنت فأجعل حزنك في قرارة نفسك. وأظهر القرح. بل اضحك.. اضحك دائماً، فلا تؤذي الناس.

بل إن هذا الضحك يؤدي، ولو كان يخفى وراء الحزن، إلى إعجاب الناس بك، وإلى اكتساء رداء من الجمال، واكتساب مناعة، لا تؤثر فيها، على الأيام، المصائب والآلام. ولولا هذا لما كانت العرب تمدح من كان ضحوك السن، بسمام المشيئات، طليق الوجه. ولولا هذا، أيضاً، ما كانت تدم من كان عبوساً أو قطوباً، أو حامض الوجه، كأنما وجهه منضوح بالخل.

وقد تيقنت، أن الضحك، ولو كان يخفى الحزن، يكسب الجسم مناعة، لا يؤثر فيه معها المصائب بعد حادثة شاهدها بنفسه. فني عودتي من القاهرة في يناير الخالي، اقيمت في القطار سيدة فرنسية تحدر نحو الحسين، وما تزال باضرة الوجه، ريانة الجسم، كأنها احتبست الشباب في جسمها، ولم تغلته. وكان يزيد في جمالها حديث رقيق يُغري، ولطف شديد يغوى. فعجبت منها، ونساءلت في نفسى عن سر احتفاظها بالشباب والجمال؟

وكان يجانبها فتاة لم تضط المشرين من عمرها، علمت أنها ابنتها، كانت ذات وجه سام، ونفس مكروية. تلح الحزن في نظراتها، ولفتاتها، وآهاتها. قلت في نفسى: ربما تكون مريضة... أو أن داء العشق قد لحقها... فلما بدأنا الحديث، شدهنى من الأم فرحها وضحكها، ومن البفت صمتها وعبوسها. كانت الأم تضحك لكل كلمة... فيزهر وجهها ويزيد سحرها. وكانت الفتاة تمس، فيظلم وجهها، ويحمض جمالها. وكانت الأم، تلفظ الكلمة، ترققها بالإشارة، وتردفعها بالضحك؛ ضحكة رقيقة تهيج فرحك وسرورك. والبنت ترسل النادرة، إذا تندرت، بلفظ خشن وجفاء ظاهر. فعجبت، ومازلت حتى سألت الأم:

— إنى لأراها حزينة.. أتشكو أملاً؟...

قالت: أوه! كلا.. إن هذا الجيل لا يعرف كيف يحيا. إن في الحياة سرّاً، لا يهتأ بها، إلا من عرفه. دعها، إنها لا تسمع منى. الحياة عابسة ولا تغلب إلا بالضحك. قلت لها

وأن هذا السر يقاوم الأمراض ، أو يدفع الجرائم . إن علماء النفس يشيرون إلى النشاط الذى يتدفق فى الجسم إبان الفرح . وكأن هذا النور الذى يفيض فى الابتسام والضحك ، ينشط ويقوى ، وكأن مادة كهربية تريح الأعصاب ، وتزيد فى المافية ، بل كأن فيه ما يشفى فعلاً من بعض الأمراض .

فقد ذكرت أن « برغون » الفيلسوف الفرنسى الشهير ، أجهده التفكير والعمل ، قبل موته بعشرين سنة ، فضعفت أعصابه ، وبدأت عليه أمارات النورسستانيا ، فاجأ إلى الأطباء ، فلم ينج بمعاييرهم مما هو فيه . حتى أشار عليه واحد منهم بأن يضحك . فعجب الفيلسوف ، وأحط الطبيب :

« إن دواءك الفرد هو أن تضحك يا سيدى . فاضحك كل يوم ساعة ، أو ساعتين . . . »

وانطلق الفيلسوف إلى داره يضحك من نفسه ، ومن الطبيب . ولكن كيف يضحك ساعة أو ساعتين ؟ وتعمد الضحك وتكلفه ، ثم لجأ إلى الملامى ، يشهد كوميديات مولير التى تنير الضحك . فكان يضحك ، فى أعماق قلبه . ولم تمض غير شهر قلائل حتى شعر أنه مُشفى . وعندئذ تسأل عن السر الذى يُشفى ، ووضع دراسته المسماة « Le Rire »

فالشفاء هنا ، أتى من موافقة الضحك الجسم ومداواته المرض وإراحته الأعصاب .

ورأيت من قبل أن بالضحك حفظت السيدة الفرنسية شبابها وبنت لهما . وأعتقد أن الجاحظ العظيم قد فطن لذلك ، فقال :

« وما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شيء فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب . لأن الضحك أول خير يظهر من السبى ، وقد تطيب نفسه ، وعليه يثبت شحمه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ، ومادة قوته . . . »

فاضحكوا . . . فإن ضحكة واحدة تخرج من أعماق قلبى ، فيستريح بها عقلى ، ويشفى جسمى ، وتثبت فى القوة والنشاط ، لمى خير مما يجمعون .

صمويل الريمه المنجم

دمشق

ذلك فلم تعقل . هذا ما كنا نسمعه من مجازنا اللواتى عشن سيديات . أما اليوم ، فالحياة تعبس وهم يعبسون . عبوس يجر الحزن ، وحزن يدفع إلى الموت البطيء . أليس الأمر كذلك يا سيدى ... ؟

ثم أطرقت ... وعادت تقول :

« يا أسفا على ذلك الزمان ، أيام كانت أرى توصينى أن أضحك دائماً . لقد ضحككت كثيراً ، فهنت . كنت أضحك لأنقه سبب ، وفى قرارة نفسى حزن جانم شديد . أوه ! ماذا أحدثتك ؟ لقد جعلتنى ضحكائى أجل فتاة بين صواحي . ثم وجدت فيها ما يخفف من آلامى ، ثم صرت إذا أصابتنى مصيبة تمددت أن أضحك ، لأنسى همومى . أتدري أننى رزئت فى ابنى وبنيتى ؟ لقد ابتلع البحر ابنى وهو فى العشرين من عمره ، وماتت ابنتى الصغيرة فى الآب ، وأصابتنى فى هذه الحرب كوارث تحطم ، وكنت أحزن وأبكي ، ثم أعود إلى الضحك ... وأصبر ، فيذهب الحزن . »

قلت لها : إنها وصاة جديرة أن تتبع يا سيدتى . لو عرف الناس هذه الأسرار ، لضحكوا . . .

قالت : أو كد لك أنهم لو عرفوها لما تركوا الضحك أبداً .

كانت أرى تقول : إن فى الضحك أسراراً ليست فى شيء

غيره . ضحكة بل بسمه تُرضى زوجك إذا كان مُفَضَّلاً . وضحكة رقيقة تأسر عقل زائر ولو كان جافياً . اضحكي ، استمعي على قضاء حاجاتك بالضحكات والبسمات . اضحكي ، وأنت فى نزحك . . . فإن ذلك يثير شفقة الناس ، ويزيد فى دعائهم لك ، وحبهم إليك . اضحكي وأنت حاتقة منيطة ، فإن الضحك يهدى ويرضى . بل اضحكي إذا أهنت يوماً ، ولم تستطعي أن تنقضى ، فإن ضحكك يزيد فى غيظ خصمك . فإذا وانتك الفرصة بعد ذلك فانتقمى منه .

لقد أثر حديثها فى نفسى . وأنت به . وأدركت هذه النصارة التى تسيل فى جسمها وترف على خديها ، وهذا النور الذى يتألق فى عينيها .

إن الناس جميعاً لا يستطيعون أن يفعلوا كل هذا . ولكن ألا يمكن أن يفعلوه إذا اعتادوه ؟

ثم إنه يظهر بعد هذا ، أن فى الضحك ، ولو كان يخفى الحزن ، سرّاً .